العرب قبل التاريخ

لجناب رفعتلو جرجي افندي بني (تابع ما قبلهُ)

وكان العرب يقدحون النار بضرب خشبةٍ على اخرى ويسمُّون الضاربة زندًا والمضروبة زندةً ثم زادوا على ذلك القدح بالحجر ايضًا بدليل تسميتهم الحجر الذي تقدح النار به مظرَّة واما الاستصباح فكان اما بدهنٍ يعصرونهُ من ثمر شجرة الكتم او من بذرة الكتان لكن الاهتداء الى انهما لم يكن الاَّ تدريجًا على سنة الارتقاء الظاهرة في سائر الشؤون الاُخر

ولم يكن هذا كل استخدامهم للطبيعة فانا رأيناهم يتخذون الاناء من الأدم اعني ذلك بالعلبة فانها الوعاء من جلود الابل ومثلها الجَلَبَة على انهم لم يكونوا لاول عهدهم يضعون الاناء على النار انضاجًا للطعام لانَّا عرفناهم يشربون الالبان ولا يأكلون اللحم الاَّ شواء بعد اذ كانوا ينهشونهُ نيئًا تشبهًا بالحيوان على انهم كانوا اذا عالجوا طعامًا بالنار يحمون الحجارة ويدسونها فيهِ حتى يتم النضج وقد ورد عنهم اسماء لهاتيك الحجارة الرَّضف والمرضافة لكن ما عنموا ان اخذوا من الحجر قدرًا سموهُ مرجلاً وشرعوا يضعونهُ على الاثافيّ فوق النار

وكانت سائر الآنية من الخشب بدليل وجود الكثير من اسماء القصاع والاقداح الخشبيَّة وحسبك منها ما ذكرهُ الامام الثعالبي وهو القيحة الصحيفة المتكلة القحفة القصعة الجفنة الدسعة الغضارة قال واما هذه فانها مولَّدة لانها من خزفٍ وقصاع العرب من خشب اه

ثم تدرجوا الى اصطناع الغضار خزفًا فكان منهُ الاجانة والابجانة والمركن على ان المصنوع كان يعرَّض للشمس فيجف فيها ومن ثمَّ تدرجوا الى شيّهِ وكان من نتاج صناعتهم هذه المرجل والقدر والاقداح والاكواب وامثالها

واما السلاح فتدرَّجوا بهِ ايضًا من الطبيعي الساذج الى احسن المعروف عنهم اذ بدأوا بنصف غصون الاشجار وقضبها والتقاط زلط الارض وحصباتها يستخدمون ذلك في مكافحة الوحش ومن ثمَّ صلَّحوا العصا فكانت الهراوة حتى رأوها لا تنيلهم اربًا عظيمًا على انهم شهدوا بعض الحيوانات تذود عن نفسها بالقرون الناطحة فاغتصبوها بعض هاتيك القرون وحدَّدوا رؤوسها بحجر سموهُ ثقافًا وشدّوا ذلك الى الهراوة الطويلة فنتج

لهم ضربٌ من الرماح يُقال له المدربة كان اقدم سلاحهم عهدًا وفيهِ يقول لبيد بن ربيعة العامريّ من معلقتهِ المشهورة

فاحفنَ واعتكرت لها مدربةٌ كالسمهريةِ حدها وتمامها

ومثل ذلك اتخذوا من الاشجار القسيّ والنبال يرمون بها القريب والبعيد وظلوا على استعمالها الايام الطوال حتى تفننوا بانواعها وعدّوا اسماءها فكادت تملأ صحف اللغة على انها كلها تنبيء عن شكلها ونوعها ومنبت اصلها وحسب الاباء تذكرةً باسمائها الآتية وهي الفاق القضيب الفجاء القيواء الكتوم العانكة وامثالها كثير وكانت الانصل لذلك العهد عودًا بدليل ان من اسمائها القِطع وهو مأخوذ عما قُطع من الشجر ومنها السروة والسرية اولها مشتق من شجر السرو المعروف وثانيها من السرأة وهي شجرة عرّفها اللغويّون باخذ القسي منها على انهم كانوا اذا قطعوا غصنًا ليتخذوهُ نصلاً تفوهُ بين حجرين املسين حتى يصير رميضةً اي نصلاً محدّدًا يؤيد هذا ايضًا قولهم رمضَ النصل

وفي اللغة غير ما تقدم من اسماء الآلات والادوات القديمة التي استخدمها العرب في عهدهم الظريّ مثال ذلك المِنهر للحجر الذي يُدغ بهِ النوى ويحق الشيء والفهترّ حجرٌ يحق بهِ ايضًا والصلابة الحجر الذي يُحق عليهِ واما النصل والمنصل والمنصال فاسماء حجر طويل يُدَق بهِ في الكِدن وهو جلد كراعٍ يُلبخ فيقوم مقام الهاون يدق فيهِ والحَلُوء حجرٌ يحك بآخر فتتخذ الحكاكة منها كحلاً

اما اللباس فقد تدرّج العرب فيهِ تدرُّج سائر الفطريين من المعاصرين والغابرين فان الفعل شصر الثوب اي خاطهُ خياطة متباعدة مأخوذةٌ من شصرت الشوكة فلانًا اي شاكتهُ وهذا يدلنا انهم كانوا في بدء اهتدائهم الى الخياطة يقلّدون الشيء الطبيعي بحيث لما احتاجوا الى ضم اوراق النبات وكانوا يعرفون بالمشاهدة ان الشوك يخترق الجلد اتخذوا من هاتيك الاشواك ابرًا ثم رأوها لا تجدي نفعًا كبيرًا فخددوا العود حتى دقّ فكان المِخيَط واما خيوطهم فمن الياف النبات ولحاء الشجر وبها كانوا يصلون بين القطع فتصح ثوبًا ويزيد الامر ثبتًا قولهم تلفّع الرجل بالثوب اي التحف بهِ وهذا مستعارٌ من قولهم تلفّع الشجر بالورق اي اشتمل بهِ وتغطى والتفعت الارض بالنبات اي اخضارّت ومن ذلك اللفاع اسمٌ للثوب والاسديّ اسمٌ آخر مأخوذ من النبات المعروف بذلك الاسم

هذا شأن مجاوري الاشجار واما الضاربون في الفلوات فانما كان لباسهم اديمًا

سلفوهُ عن العجاوات فلبسوهُ وكأني بهم في بادىء الامر لا يعرفون الابرة وانما يخيطون تقليد الحيوان الذي يسلخون بان يلبسوا الجلد منوّرًا وحبيك شاهدًا الفوارة والرَّهْطَ وهما اسمان للثوب المنوّر من فوق ومن تحت على ان الحاجة اضطرتهم الى وصل القطع فصاروا يضعون الواحدة فوق الاخرى فيخرزونها ويشصرونها وان هذا ظاهرٌ من قولهم بَصَر الاديم اي خرزهُ على هذا النسق واما الابر فالاظهر انها أُخذَت من العظم اولاً بدليل ان اسمها (الابرة) يسم عظمة الكرعوب وغيره

بيد ان القوم ما لبثوا ان شهدوا العنكبوت تنسج خيوطها فعمدوا الى تقليدها واذا بهم قد اهتدوا الى النساجة اما من الياف النبات او من وبر الابل وصوف الغنم وشعر المعزى وليس بدعًا ان يكون الخيش اسم اقدمها عهدًا لانهُ خشن النسج متخلخل وفي خيوطهِ غلظٌ وجفاء على انهُ اما من الكتان او من شجر اللبلاب ولا غرابة في نساجة الياف النبات واوراقهِ فانما ذلك معروف عن سائر الاقدمين من اهل الفطرة في غير موضعٍ من انحاء المعمورة والعرب انفسهم كانوا ينسجون من ورق النخل او الحناء نسيجًا يسمونهُ برشًا لكنَّ الذين كانوا يستدرون الضرع ما عدموا ان اهتدوا الى نساجة شعر الحيوان واصطناعها ثيابًا منها الخميج والمِرط والبتّ وفي هذا الاخير يقول الشاعر

من كان ذا بتٍّ فهذا بتّي مُنيطًا مصيفٌ مشتي
اخذتهُ من نَعجاتٍ ستٍّ سودٍ نعاجٍ كنعاج الوشتِ

واما الكتان فربما عرفوهُ منذ القديم ايام اتخذوا من لحائهِ خيوطًا ثم صاروا يغزلون اليافهُ وينسجونها باول كساء معروفٍ عندهم على ما فيهِ من غلظة اليد انما هو الخيش واما الخزّ فقد تعددت فيهِ الآراء وتنوعت الاقوال ومنها ما ورد في المغرب من انهُ اسم دابةٍ ثم سمي بهِ الثوب المتخذ من وبرها وكان اول النسج من الخز خشنًا فسموهُ ردنًا

هذا بعض ما اقتطفتهُ من كتب اللغة العربيّة واخاله كافٍ لبيان شيءٍ من شأن العرب في عصرهم الظريّ على اني اعتقد ان في السوبداء رجالاً يحصون الامر ويخوضون عباب اللغة فيزيدون هذا البحث جلاء وايضاحًا واني موطّن النفس على تتبع هذا الموضوع المهمّ ودراسة العصر الشيهاني العربي حتى اذا رأيت شيئًا مذكورًا رجوت الاستاذ الفاضلين منشئي المقتطف الاغرّ ان يفسحا لهُ مكانًا بين رياض مجلتهما الزهراء فاعرضهُ فيها لانظار النُدَّة الالبّاء والله وليّ التوفيق